مجلة

الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

مجلة – علمية – محكمة

رقم الإيداع: (١٤٢٩/٣٣٠٢هـ بتاريخ ١٤٢٩/٦/٧هـ)
الرقم الدولي المعياري (ردمد): ٤١٥٥ - ١٦٥٨

كل بحث نشر في المجلة
يعبر عن رأي صاحبه

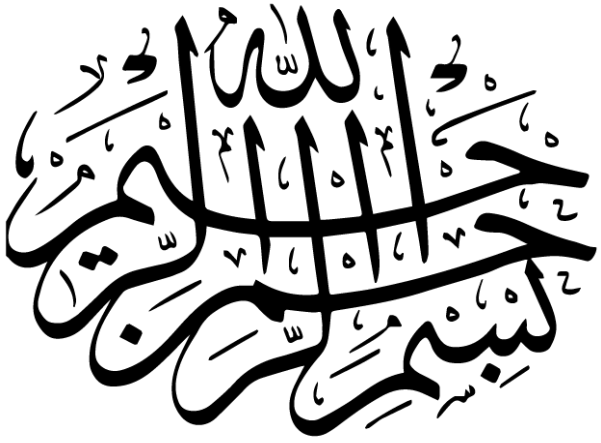
بسم الله الرحمن الرحيم

هيئة تحرير المجلة

المشرف العام على المجلة، رئيس مجلس إدارة الجمعية:

- د. بدر بن محمد الراشد

رئيس التحرير:

- أ. د. عبد المجيد بن صالح الجار الله

مدير التحرير:

- د. سليمان بن صالح الزميع

أعضاء هيئة التحرير:

- أ. د. إبراهيم بن عبد العزيز أبو حيمد
- أ. د. أماني بنت عبد العزيز الداود
- أ. د. صالح بن عبد العزيز المحمود
- أ. د. عبد الرحمن بن رجا الله السلمي
- أ. د. عبد العزيز بن صالح العمري
- أ. د. فريد بن عبد العزيز الزامل

طبيعة المجلة وضوابط النشر

طبيعة المجلة:

١- مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.
٢- مجلة علمية محكمة.
٣- تعنى بعلوم اللغة العربية وآدابها.
٤- تنشر البحوث والدراسات العلمية المحكّمة.
٥- دورية نصف سنوية، تصدر منتصف السنة الهجرية ونهايتها.

ضوابط النشر:

أولاً: الضوابط العامة لقبول البحث:

١- أن يكون البحث في علوم اللغة العربية وآدابها.
٢- أن يتّسم بالجِدّة والأصالة وسلامة الاتجاه.
٣- أن يلتزم البحث بالسلامة اللغوية، والدقة في التوثيق والتخريج.
٤- ألا يكون البحثُ منشوراً أو مقدّماً للنشر في مجلة أخرى.
٥- ألا يكون مستلاً من عمل علمي سابق للباحث.

ثانياً: ما يشترط في كتابة البحث وتوثيقه:

١- أن يُكتب البحث على ورق من مقاس (A4).
٢- أن يُكتبَ بخط (Traditional Arabic) بحجم (١٧) للمتن، وبحجم (١٤) للحاشية، وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرداً).
٣- أن تُكتبَ الهوامش أسفل كل صفحة على حدة.
٤- أن يُذيَّل البحث بثبت المصادر والمراجع.

٥- أن يكتب الباحث ملخّصاً لبحثه باللغتين العربية والإنجليزية لا تزيد كلماته على مائتي كلمة، ويتضمن الملخص موضوع البحث وأهدافه، ومنهجه، وأهم التوصيات، والكلمات المفتاحية.
٦- رومنة المصادر والمراجع.

ثالثاً: ما يشترط عند تقديم البحث:

١- يقدم الباحث طلباً بنشره، وإقراراً يتضمن امتلاكه لحقوق الملكية الفكرية للبحث كله، والتزاماً بعدم نشر بحثه المقدم إلا بعد موافقة هيئة التحرير.
٢- يقدم الباحثُ نسختين من بحثه على النحو التالي:
- نسخة من البحث خالية من اسم الباحث كاملة بصيغة (WORD).
- نسخة من البحث خالية من اسم الباحث كاملة بصيغة (PDF)
٣- يرفق الباحث ترجمة الملخص باللغة الإنجليزية.
٤- يرسل الباحث بحثه مع الملخصات إلى منصة مجلة الجمعية:
(https://imamjournals.org/index.php/josaa/index)

اللهجات العربية المعاصرة بين التركستاني وأونز وفيرستيغ: دراسة في المنطلقات النظرية والتطبيقية

Associate Professor At department of Linguistics at Arabic Faculty at Islamic University of Madinah

إعداد

د. محمد ظافر الحازمي

أستاذ مشارك بقسم اللغويات بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة المملكة العربية السعودية

Dr. Muhammad Zafer Alhazmi

Associate Professor At department of Linguistics at Arabic Faculty at Islamic University of Madinah

ملخص البحث

تهتم هذه الورقة العلمية بالموقف الذي يتبناه ثلاثة من علماء العربية تجاه اللهجات المعاصرة في تأصيلها وتطبيقات دراستها، وهم: محمد يعقوب التركستاني وجوناثان أونز وكيس فيرستيغ. وفي بداية الورقة سأقوم بعرض تحليل توصيفي لقضية التطور اللغوي وموقف القدماء منه، وهو موقف يتمثل في العمل على دراسة اللغة المعيارية فقط، ولكن هذا الموقف لم يشتمل على رفض الواقع اللغوي. ويتفرع عن هذا التحليل التوصيفي الحديث عن قضيتين أساسيتين لفهم مسيرة التطور اللغوي في العربية والمواقف المصاحبة لها. فالقضية الأولى تتمثل في حقيقة أن الدرس اللغوي يتراوح بين المَعْيَرَةِ والتوصيف، والمعْيَرَة تاريخياً كانت أسبقَ من التوصيف؛ لارتباطها بقضية العرق أو الدين. والقضية الثانية تتمثل في المسار الذي تسلكه اللغات عموماً في تطورها، مع إلقاء الضوء على مسارات تطور العربية، خاصةً من وجهتي نظر كلٍ من كيس فيرستيغ وجوناثان أونز. تهدف الدراسة إلى إظهار الموقف الذي يمكن استخلاصه من أعمال ثلاثة من علماء العربية المعاصرين بمزيد من التفصيل عبر محاولة فهم طبيعة تلك المواقف ومنطلقاتها التطبيقية، والعوامل اللغوية والفولغوية التي شكلتها. ومن مخرجات هذه الدراسة: أولاً، تقديم فهم أعمق لقضية التطور اللغوي في حالة العربية، ثانياً، إظهار التنوع في المواقف بين ثلاثة من المختصين وبيان ما اتفقوا فيه واختلفوا عليه في التأصيل اللغوي للهجات العربية المعاصرة ودراستها.

الكلمات المفتاحية: (محمد التركستاني، جوناثان أونز، كيس فيرستيغ، التطور اللغوي، اللهجات العربية)

Abstract

This paper concentrates on the positions adopted by three Arab-language scholars regarding the Arabic dialects in their origins and study applications, namely, Muhammad Yaqoup Al-Turkustaani, Jonathan Owens and Kees Versteegh. The paper starts with a descriptive analysis of Arabic language change and the attitudes of ancient Arabic linguists towards this change. The ancient attitude concentrates on investigating and working on standard language only; however, this does not mean that ancient scholars denied the dialectal situation of that era. As mentioned above, the description raises the question of two issues fundamental to understanding Arabic's linguistic development and the various attitudes towards it. The first issue is that linguistic investigations range between standardised and descriptive studies. However, standardised studies have been initiated long before descriptive studies because descriptivism was linked to race or religion. The second issue concerns the path that languages generally follow in their evolution. I will focus on the views of Kees Versteegh and Jonathan Owens because their opinions are of great importance in determining the attitude towards Arabic linguistic development. The study's objectives are as follows: first, to provide a deeper understanding of the linguistic change in the Arabic case; Secondly, I will reflect in greater detail on the positions that can be derived from the works of the three scholars mentioned above highlighting what they agreed on and disagreed on regarding the origins of contemporary Arabic dialects and the best way to study them.

المقدمة:

إن البحث في مجال الدراسات اللغوية التي تلامس حياة الناطقين اليومية يندرج تحت مظلة الدرس اللغوي الاجتماعي. وهذا الفرع من الدراسات يروم إماطة اللثام عن العلاقة بين اللغة والمجتمع؛ لأن القائمين على مثل هذه الدراسات أدركوا منذ بدايات ظهور هذا الفرع وتشكُّلِه قُدرَتَه على كشف الكثير مما كان غامضاً من طبيعة اللغة والمجتمع.(١)

وعلم اللغة الاجتماعي ينقسم إلى فرعين رئيسين: نظريٌّ وتطبيقي. فالنظري هو ما تبدأ عنده النظريات التي إما يُراد لها إثباتٌ أو دحضٌ، وبعد الإثبات قد يُراد للفكرة النظرية إما التعميم أو التحديد والتخصيص. وكل الممارسات التطبيقية لا تعدو هذا المسار الاختباري الذي يجمع العيِّنات من الميدان ثم يختبرها. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن مجال الدرس اللغوي الاجتماعي خطا خطواتٍ واسعة في الكشف عن كثير من أسرار اللغات والناطقين بها. بل إن المنطلقات النظرية التي ينطلق منها الباحثون في هذا المجال ربما تكشف عن الكثير مما يؤمِنُ به الباحث ويرغب في إثباته أو دحضه قبل أن يجمع العينات. ولذا فإن العينة التي يقوم بجمعها ودراستها كلُّ باحثٍ في هذا المضمار توضح الكثير حول أهدافه ومعتقداته اللسانية. ويمكن القول إن هذا ما قام به علماء العربية من الرعيل الأول، الذين حددوا أهدافهم بدقة وتتلخص في قضية اللحن. وبعد أن حددوا الهدف وكانوا فيه صفائيين بدرجة صارمة انطلقوا لجمع المادة اللغوية من تلك الفئة المحددة من الناطقين زماناً ومكاناً وعِرْقاً (عرب وسط الجزيرة داخل زمن الفصاحة). وأعتقدُ أن هدفَهم يتخذ شكلين: أحدُهما تعليميٌّ وهو الذي يسميه بعضهم البيداغوجي (تعريب لكلمة Pedagogical)، والثاني ربما ليس ببعيد عن أهداف الباحثين المهتمين بانقراض اللغات مثل اللساني البريطاني المعاصر ديفيد كريستال David Chrystal؛ لأن المستوى الفصيح كان يخشى عليه من الضياع وهي أول مراحل الانقراض اللغوي.

إن دخول كثيرٍ من العجم في الإسلام الذي لا مندوحة لمعتنِقه عن تعلم العربية مرتبطٌ بالهدف التعليمي الديني الذي جعل الدرس اللغوي العربي ضمن الدروس التي تنضوي تحت المرحلة التوفيقية عبر التاريخ (وفي تلك المرحلة يُوفِّق الدرسُ اللغوي بين دراسة اللغة وغرضٍ آخر مثل: خدمة الدين عند العرب، وخدمة الفلسفة عند الإغريق)(٢).

ومن هنا فإن القول بأن جُمَّاع اللغة عملوا على جمع لغة الأقلية (البدو) لإلزام الجمهور بها ليس دقيقاً. إذ إن عمل القدماء كان توصيفياً في حق البدو وتشريعياً في حق الفئات المستهدفة وهي فئة المسلمين الجدد وطلاب العلم ومتسنمي المناصب عرباً وعجماً وليس جمهور العوام والباعة في السوق ونحو ذلك. لأن علماء اللغة لو كان هدفهم تعميم لغة الأقلية لتصبح لغة الجمهور قاطبة حتى الباعة في السوق لدلَّ ذلك على إنكارهم لواقع الحالة اللهجية وتباين المستوى اللغوي

(١) هدسون (١٩٩٠)، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، (ط٢)، القاهرة، عالم الكتب (١٢).

(٢) غلفان، مصطفى (٢٠١٠)، "في اللسانيات العامة تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها"، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة (١٠٨-١١٠).

بين الناطقين بالعربية آنذاك، ويستبعد أن تكون الحال كذلك. إذ إن علماء العربية كانوا متعايشين في الحياة اليومية مع تباين المستوى اللغوي ليس بين الفصيحات فقط، بل من جهة التباين بين اللغة الموسومة بالفصاحة في مقابل التنويعة الأخرى وهي الموسومة بالملحونة. وربما أن الذي يدل على ذلك تلك القصة التي أُثِرت عن عمر بن الخطاب من أن أعرابياً في خلافة عمر جاء وقال: من يقرئني شيئا مما أُنزل على محمد؟ فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللحن: وأذان من اللّه ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن اللّه بريء من المشركين ورسولِه ... فقال الأعرابي: إن يكن اللّه بريئاً من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة وقص القصة فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين فقال: أن اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فقال الأعرابي: وأنا أبرأ ممن برئ اللّه ورسوله منهم. فأمر عمر ألا يقرئ القرآن إلا عالم بالعربية[1].

مثل هذه الرواية توضح كيف أن الجمهور الأساسي المُتلقِّي لعلوم العربية ليسوا الباعة في السوق وأصحاب المهن والحرف، بل هنا يقول عمر: بأن جمهور علوم اللغة هم معلمو القرآن الكريم. ولكن ربما أن اشتغال علماء العربية بالمستوى الفصيح فقط دفع بعض المحدثين إلى الظن بأن علماء العربية كانوا من التطرف لدرجة أنهم يريدون تعميم لغة الأقلية البدوية على جمهور سكان دولة الخلافة الإسلامية، أمويةً كانت أم عباسيةً.

وحينما تسير عجلة الزمن بعد عهد الخلافة الراشدة ونصل إلى عصر الجاحظ تتأكد هذه الفكرة حينما نطَّلع على باب اللحن في البيان والتبيين. حيث يصف الجاحظ واقعاً مختلفاً تماماً وبعيداً كل البعد عن الفصاحة وهذا الواقع يبدو أنه شكَّلَ حالةً عامةً. ولعلي في هذا السياق أقتبس القصة التالية من كتاب البيان والتبيين التي رواها يوهان فك في كتابه العربية وهي:

"وقد فهمنا معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس، حين قال له الحجاج أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ قال: شريكاننا في هوازها، وشريكاننا في مداينها وكما تجيء نكون. قال الحجاج: ما تقول، ويلك! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك، يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها"[2].

مثل هذه الشواهد تؤكد تعايش الخاصة مع واقع العربية المتفاوت. وما إن يتأخر الزمن بعد الجاحظ حتى نجدُ عدداً من كتب التصحيح اللغوي التي ربما تندرج مع كتب التفصيح الحديثة تحت مظلةٍ واحدة. إلا أن كتب التصحيح تدور في فلك التطهير اللغوي الذي يُبين الفرق بين الفصيح وغيره، لكن كتب التفصيح في العصر الحديث تعمل على العكس من كتب التصحيح، فأعمال التفصيح تتلمس جوانب التشابه بين الفصيح واللهجات المعاصرة التي طالها الكثير من

(١) الأفغاني، سعيد (١٩٧٨)، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح (١٠).
(٢) الجاحظ، أبو عثمان (١٤٢٣)، البيان والتبيين، بيروت، دار ومكتبة الهلال (١:١٤٨).

التغيير والتطوُّر اللغوي عبر القرون المتعاقبة. وهذا ما عمل عليه الدكتور محمد يعقوب التركستاني في عملٍ كبير خرج في ثلاثة أجزاء بعنوان العاميات الفصاح.

في هذه الورقة سأعمل على محاولة استشفاف الموقف اللغوي الذي ينطلق منه التركستاني في تفصيحه لما جمعه من العاميات الدارجة وأقارنه بموقف كلٍ من جوناثان أونز وكيس فيرستيغ، إلا أن الموقف اللغوي الذي ينطلق منه التركستاني ربما يشبه إلى حد كبير موقف علماء التصحيح اللغوي الذي لا يساوي بين الفصحى وغيرها من المستويات الدارجة. ولكن الفرق بين الموقفين: القديم عند علماء التصحيح والحديث عند التركستاني يكمن في أن القديم يجتنب الحديث عن الحلول الوسط، لأنه موقفٌ تشريعيٌ يقوم على إصدار الأحكام على التنويعات اللغوية في ذلك العصر. في المقابل فإن الموقف الذي يتبناه التركستاني في أحد أعماله الذي يحمل عنوان: في العاميات والفصحى المخففة موقفٌ فيه الكثير من الرؤية الواقعية التصالحية التي تقوم على إيجاد حلول وسط بين الواقع والمأمول. وستتكون هذه الورقة من مقدمة، وستة مباحث: الأول، بين المعيار والتوصيف، الثاني، ناموس التطور اللغوي، الثالث، مسارات تطور العربية، الرابع، التأصيل بين أونز وفيرستيغ، الخامس، موقف التركستاني من اللهجات وتأصيلها والسادس، التفصيح ثم الخاتمة.

١. بين المعيار والتوصيف:

إن قضية التشريع والتوصيف واكبت الدرس اللغوي منذ القدم ويبدو أن مسار التشريع كان أسبق. والسبب في ذلك يعود إلى حقيقة التلازم بين اللغة والثقافة. فالثقافة تُلقي على الناس بخصائص إضافية فوق الخصائص الطبيعية، إذ الخصائص الثقافية تُهذب الخصائص الطبيعية وتحدّ من عفويتها وفوضويتها خاصة في جانب الغرائز. فحينما ينشأ الناطق باللغة في مجتمع معين فإنه يكتسب وجهات نظر مشتركة بين أفراد مجتمعه حول كثير من القضايا المركزية وأولها الخالق والوجود والمآل والمصير، وبين الوجود والمآل كثير من أمور الحياة كقيم الأسرة والمدرسة والعمل والحكومة وغيرها. وهذه المفاهيم في غالبها تُشكِّل قيوداً تنظيمية داخل كل مجتمع. وينتج عن ذلك أن استعمال أعضاء الجماعة للغة تنعكس عليه معتقداتهم وقيمُهُم المشتركة. ويظهر ذلك في طريقة إنجازهم للفعل الكلامي وما يتفقون على قوله من الكلام الذي يستحسنونه، أو يرفضونه. وتتميز استعمالاتهم اللغوية في اختيارهم للموضوعات التي يتناولونها. ثم إن هذا الجانب الثقافي غالباً ما يكون متداخلاً مع تاريخ هذه الجماعة اللغوية حيث إن التوجُّهات الثقافية العامة لا تتشكل في عشية وضحاها، ولكن عبر حِقَبٍ زمنيةٍ ممتدة(١).

وقد تطور النقاش حول علاقة اللغة بالثقافة بشكل لافت في القرنين التاسع عشر والعشرين حتى بلغ ذروته في نظرية النسبية اللغوية المعروفة بفرضية سابير- ورف Sapir-Worf hypothesis. حيث ذهبت هذه النظرية بهذه الفكرة إلى أبعد من مجرد العلاقة العامة بين اللغة والثقافة زاعمةً أن بنيةَ اللغة ذاتها تؤثر على رؤية الناطق بها للحياة والكون؛ ولذا فإن تصورات الأشخاص تَخضع بشكلٍ نسبيٍ إلى قوانين لغتهم المنطوقة. ورغم أن هذه النظرية تعرضت لجدل عنيف منذ أن خرج بها وورف عام ١٩٤٠ إلا أنها تُعبِّر عن مدى إمكانية ربط الثقافة باللغة من جوانب عدة(٢).

وربما أن إدوارد سابير لو اطلع على العربية الفصحى وحال أهلها أيام الفصاحة لقال إن المحافظة في أسلوب حياة العرب ربما كانت نابعةً من المحافظة الشديدة والصفائية التي اتسمت بها العربية في قواعدها ومعجمها، وربما أنه لو قال بذلك لوجد مؤيدين ومناوئين له. والغرض من النظر في هذه العلاقة المتينة بين اللغة والثقافة هو محاولة فهمِ دورِ الثقافة في تشكيل مواقف الناطقين باللغة تجاه قضايا معينة مثل التأصيل اللغوي والتشكلات اللغوية المنشعبة عن اللغة الموسومة بأنها الأصل الذي قامت عليه المعايير.

وعوداً على أسبقية الدرس اللغوي المعياري في العالم فلابد من الإشارة هنا إلى أنه وليدُ الثقافة المحافظة التي غالباً ما ترتبط بالجانب الديني القائم على العقائد الغيبية عند شعوب عدة. وهذا ما تَولَّد عنه ما يسمى بالمرحلة التوفيقية التي تمتد من القرن العاشر قبل الميلاد حتى

(١) كرامش، كلير (٢٠١٠)، اللغة والثقافة. ترجمة أحمد الشيمي، قطر، وزارة الفنون والتراث (٢١).

(٢) Giesbrech Renate (2008) 16 The Sapir-Worf Hypothesis. München . Grin Verlag.

منصف القرن الثامن عشر. ويُطلق الباحثون على هذه المرحلة التوفيقية؛ لأنها في نظرهم تُوفِّقُ بين الدرس اللغوي وغرض آخر. وفي مقدمة ذلك الغاية الدينية التي من أجلها انطلق قطار الدرس اللغوي عند كلٍ من الهنود والعرب[١]. فقد كان الهنود يُقدِّرون لغتهم السنسكريتية أيما تقدير فهي التي كُتب بها كتابهم المقدس (الفيدا). إلا أن الأجيالَ تناقلت هذا الكتاب بصورة شفهية الأمر الذي ترتب عليه الكثير من المشاكل الصوتية التي بسببها اشتغل الهنود بالدرس اللغوي لحماية كتابهم. أما بالنسبة للعرب فقد انطلقت الدراسات اللغوية عندهم بسبب موجة اللحن التي ولَّدت الخشية على القرآن الكريم من اللحن. ومن هنا ولهذه الأسباب تولدت الحاجة إلى الدرس المعياري الذي يقوم على فكرة الصواب والخطأ أو كما شاع في سالف زمن العربية بقضية اللحن.

أما فيما يخص التوصيف فهو قسيمُ المعيار في الدراسة اللغوية ولا يفوتني في هذا السياق أن أشير إلى أن الدرس الوصفي الحديث تأخر ظهوره حتى القرن التاسع عشر على يد دوسوسير الذي بدأ مرحلة جديدة في الدرس اللغوي. وقد طرحَ في محاضراته على طلابه مجموعة من الأفكار شكلت القاعدة الصلبة للوصفية في الدرس اللغوي المعاصر. ولعل الفكرة الأساسية أو المغامَرة التي قام بها دوسوسير في مجال اللسانيات تكمن في أنه استخلص اللسانيات مما خالطها من العلوم الأخرى، فسَحَبَها من تحت راية علوم أخرى وصنع لها رايةً مستقلةً لا تتداخل فيها اللسانيات مع أغراض أخرى (مثل خدمة الكتب المقدسة عند الهنود والعرب، وخدمة الفلسفة، ويظهر ذلك في التراث الفكري الذي خلفه الإغريق الذين كان الدرس اللغوي عندهم يدور في فلك الشروحات الفلسفية). حيث ذهب دوسوسير إلى أن مادة اللسانيات ليست ما تعارف عليه القدماء من النصوص القديمة ولغة الأدب الراقي الأمر الذي ترتب عليه قبل دوسوسير إهمالٌ كبيرٌ للهجات الحديث اليومي. ومن هنا فإن دوسوسير في رحلته نحو نقل الدرس اللغوي من المعيارية إلى الوصفية جعل مادة الدرس اللغوي منصبةً على جميع مظاهر التعبير اللغوي. ولم يكتفِ بضم المستويات الدنيا من اللغة تحت راية هذا الدرس كرطانات الناطقين باللغة الثانية، بل ضم إلى ذلك لغات الشعوب المتوحشة في الأدغال[٢]. ومن هنا فقد عانق الدرس اللغوي واقع اللغة وانطلق الباحثون في اللغة إلى وجهات متعددة لدراسة أشكال جديدة من اللغة. ثم إن محاضرات دوسوسير وهي مطبوعة في كتاب بعد أن جمعها طلابه تُركِّزُ على أهمية اللهجات كمادةٍ لدراسةِ اللغة والوقوف على قضية التطور اللغوي من خلال المقارنة بين اللغة المعيارية واللغة المنطوقة. وهذا ملحوظ في اللسانيات اليوم حيث إن اللسانيين المعاصرين يُولُونَ أهميةً لا تخطئها عين المتخصص تجاه اللهجات واللغات المحلية[٣].

(١) غلفان، مصطفى (٢٠١٠)، في اللسانيات العامة تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها"، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة (١٠٩-١١٠).
(٢) غلفان، مصطفى (٢٠١٠)، المصدر السابق (٢٠٩).
(٣) دوسوسير، فرديناند (١٩٨٥)، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، بغداد، دار آفاق عربية: (٢٤).

في هذا السياق تتموضع الدراسة التأصيلية التي اشتغل بها التركستاني وإن كان عمله التأصيلي يهتم بجانبٍ معينٍ في التأصيل وهو دراسة العامي الذي له أصل في الفصيح من الكلام. فدراسة الأساليب والكلمات التي نجدُها في أعماله غالباً ما تنحو نحو البحث عن الأصول الفصيحة لما نسمعه في العاميات العربية اليوم. وفي مثل هذه البحوث غالباً ما يَتتبَّعُ الباحثُ التطورَ اللغوي الذي يكون في كثير من الأحيان مرتكزاً على الناحية الصوتية في الكلمات المفردة. وربما على النواحي الصرفية والتركيبية فيما يتعلق بدراسة المتصاحبات اللغوية كما في الأساليب وإن كان الأغلب في مثل هذه الدراسات التركيز على الكلمة المفردة.

٢. ناموس التطور اللغوي:

في حين أن القدماء نظروا إلى التطور اللغوي على أنه تهديدٌ للعربية المعيارية التي هي لغة القرآن فإن اللسانيات تنظر إلى التطور اللغوي على أنه ناموسٌ تسير عليه اللغات. ومن خلال هذا الناموس فَهِموا قضية انشعاب اللغة الواحدة وتشظيها إلى لغات عدة، ولا يحدث ذلك إلا في الحِقَب الزمنية الطويلة.

والذي يظهر أن قضية الصفاء والتلوث اللغوي كانت قائمة في كثير من اللغات والثقافات وهي قضية مركزية في فهم التطور اللغوي. وذلك لأن قضية الصفاء والتلوث اللغوي تشكل القاعدة الأساسية التي تنطلق منها مواقف أهل اللغة -سواء كانوا من الطبقة العلمية أم العامة-تجاه التغيرات الطارئة على وسيلة التواصل. وعند تأمل هذه القضية من وجهة نظر اللسانيات نجد أن اللسانيين في هذا العصر يربطون ربطاً واضحا بين فكرة النقاء اللغوي والنقاء العرقي. فعلى سبيل المثال، فإن اللساني البريطاني مارك سِبَّا Mark Sebba وهو أستاذ اللسانيات الذي لا زال على رأس العمل في جامعة لانكستر Lancaster البريطانية يقدم رؤيةً لسانية معاصرة لمسألة العرق والصفاء اللغوي. حيث نشر سنة ١٩٩٧ كتاباً بعنوان Contact Language (لغة الاتصال) وعقد فيه مبحثاً بعنوان Pure Language Pure Race (اللغة النقية والعرق النقي). وفي هذا المبحث يقول: إن فكرة النقاء العرقي التي تعود إلى القرن الثاني عشر ميلادي تسببت في الكثير من الاضطرابات والمعاناة. وبسبب رفض الصفائيين للتأثر بالعناصر الأجنبية في العرق فقد جروا تلك الفكرة على اللغة، وبهذا فقد رفضوا فكرة تأثر اللغة بالعناصر اللغوية الأجنبية. وقد برروا ذلك الموقف بحجة المحافظة على التقاليد والعادات، وهذه من الأسباب التي تدفع لفكرة الصفاء اللغوي من خارج دائرة اللغة فولغوية (فوق لغوية). إضافةً إلى ذلك فإن هناك أسباباً من داخل اللغة (لغوية) يحتج بها الصفائيون لدعم موقفهم وهي متعلقة باللغة ذاتها، مثل قولهم: إن اللغة الخالية من التأثير الأجنبي أكثر دقة في التعبير عن المعاني، وهي كذلك أكثر منطقيةً من غيرها؛ لأنها نقيةٌ ومستندةٌ إلى منطق المتكلمين الأصليين بها، إضافة إلى أن اللغة النقية أكثر تنغيماً وانسجاماً

من الناحية الصوتية. وبالرغم من أن هذه المواقف كانت أكثر وضوحاً وصراحةً بين المجتمعات الناطقة باللغة الإنجليزية وبعض المجتمعات الأخرى المجاورة لها كالناطقة بالفرنسية إلا أن هذا الموقف قد تشاركته الكثير من الأمم وأصبح وكأنه ظاهرة ثقافية تتناقلها الأجيال. وقد ضرب سِبَّا على ذلك أمثلةً من الثقافتين الإنجليزية والفرنسية(١).

والذي يظهر من كلام سِبَّا هنا أنه يربط مسألة النقاء اللغوي بالعنصرية العرقية التي عانت منها الكثير من الشعوب وكأن هذه العنصرية ولَّدت مسألة التحيز اللغوي الذي قاد إلى التطهير اللغوي. وبالرغم من أن سِبَّا لم يذكر الأمم الأخرى التي حصلت فيها حركات التطهير اللغوي إلا أن من يطلع على كلامه يشعر بأن العبرة في كلامه بعموم قانون التحيز المؤدي إلى التطهير لا بخصوص القصة التي ساقها عن التحيز بين البريطانيين والفرنسيين. فهو وإن أتى بقصة بين هذين الشعبين المتجاورين إلا أنه يكتب ذلك كقوانين عامة ونواميسَ لغوية. وهنا تجدر الإشارة إلى حركة التنقية اللغوية التي أخذت موقعها في اللغة العربية منذ العصور الوسطى. وبادئ ذي بدء أود التنويه إلى أن الأمر في العربية لا شك أنه مختلف في دوافعه وأسبابه. ويمكن فهم الموقف الصفائي اللغوي في قضية حماية لغة القرآن الكريم فقط وليس أي دافعٍ عنصري آخر. ويمكن الوقوف على ذلك من خلال تتبع تطور هذا الموقف في الصنعة المعجمية. فعلى سبيل المثال اكتظ معجم كلٍ من الخليل بن أحمد وأبي بكر ابن دريد بالكثير من المعرَّب، ولم يكتف ابن دريد بتوثيق المعرب بل ذهب بعيداً بحيث عقد فصلاً مستقلاً يؤصل فيه لما تسلل إلى العربية من كلام العجم، وهذه ربما تكون أول خطوة تأصيلية مكتملة الأركان في تاريخ المعجمية العربية. ولكن حينما جاء الأزهري من بعده كان أول من يدشِّن حملةَ التطهير اللغوي التي افتتحها في مقدمة معجمه بالتشنيع على ابن دريد والحط من قدره ليس في الناحية العلمية فقط بل حتى في الناحية السلوكية (٢).

وقد تبعه في حملةِ التطهير الجوهريُّ ويظهر ذلك على عنواني معجميهما فالأزهري سمّى معجمه التهذيب والجوهري سمى معجمه الصحاح وأشارا في المقدمة إلى قضية تنقية اللغة وتصفيتها(٣)، إلا أن الناظر في هؤلاء الأربعة الأعلام يجد أن الخليل وابن دريد عربيان ولم تكن قضية التطهير اللغوي لديهما بصورتها الفاقعة التي نجدها عند الأزهري والجوهري وهما أعجميان! فالأزهري أفغانيٌّ من هرات، والجوهري تركي. وهذا لا يستقيم مع تعميم اللساني البريطاني مارك سِبَّا الذي يرى أن التطهير اللغوي غالباً ما يرتبط بالعرق إذ لو كان الأمر كذلك لكان الخليل وابن دريد أولى بتطهير اللغة من الأزهري والجوهري. ومن هنا فيمكن القول بأن حالة التطهير اللغوي في العربية لم تكن عرقيةً بل كانت قضيةً دينيةً ارتبطت بقداسة النص القرآني فهو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هذا الاعتقاد جعل اتباع هذا الدين

(١) Sebba Mark ,(1997), Contact Language: Pidgins and Creoles. New York .Palgrave: (4).

(٢) الأزهري، أبو منصور (٢٠٠١)، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي (١:٢٧).

(٣) الجوهري، إسماعيل بن حماد (١٤٠٤)، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين: (١:٣٣).

يتناسون لغاتِهم ويُبدون الحميةَ والعصبيةَ للغة دينهم وهي العربية، وهذا ما أدى إلى انتشار العربية في كل الأقطار التي كانت تنضم تباعاً إلى دولة الإسلام حتى غدا بعض العجم أفصحَ من كثير من العرب، وأضربُ على ذلك المثل ببشار ابن بُرد بين الشعراء والحسن البصري بين الوعاظ.

ولا يفوتنا في هذا السياق القول: بأن قضية العرق كانت حاضرة قبل الإسلام في أوساط العرب، ولكن ما إن ظهر الإسلام حتى تلاشت تلك النزعة، ثم عادت للظهور في أزمنة معينة وتحت ظروف معينة كظهورها إبان انتشار الشعوبية.

وبعد أن ألقيتُ الضوء على أحد أهم موانع التطور اللغوي ودوافعه أود فيما تبقى من هذا المبحث أن ألقي الضوء على التطور اللغوي كقانون عام ينطبق على اللغات كلها، وهو من القضايا التي تُدرس تحت مظلة اللسانيات الاجتماعية.

ورغم الاتفاق بين اللسانيين على أن التطور اللغوي أو تغير اللغات أمر لا مندوحة عنه إلا أنه لا توجد هناك فرضياتٌ عالمية يمكن من خلالها أن نخمِّن نوع التغير اللغوي الذي يمكن حدوثه في حقبة زمنية معينة.

وهناك من زعم أن اللغات في التغيير تسلك أحد ثلاثة طرق: إما التبسيط، أو التعقيد، أو أن تبقى اللغة على حالها، وكل طريق له عواملُ قسَّمها المتخصصون إلى لغوية وفولغوية. فالعوامل اللغوية تتحكم في جوانب تتعلق بطبيعة اللغة، فلو كانت اللغة بالمقارنة مع غيرها شديدة التعقيد والتفاصيل فإنها مرجَّحةٌ للكثير من التبسيط والتخفُّف من تلك القوانين عبر الزمن، وذلك سلوك طبيعي يسلكه المتكلمون. أما العوامل الفولغوية فتتعلق بانتقال اللغة من جيل إلى آخر وهذا الانتقال يتأثر بعدةِ أمورٍ: نحو عدد المتكلمين باللغة، ونسبة التعدد اللغوي بين الناطقين باللغة، ومكانةُ كلِ مستوىً لغويٍ أو لغة داخل هذه المجموعات من المتكلمين(١).

وكل هذه الظروف اللغوية والفولغوية قد مرت بها العربية في رحلتها من المستوى المعياري الذي كان شائعاً قبل اتصال العرب بالعجم وصولاً إلى العصر الحديث الذي وجدنا فيه هذه التنويعات اللهجية مكتملة قائمة على سوقها.

والحقيقة أن هذه التنويعات اللهجية لم تظهر فجأةً في العصر الحديث، ولكن مرت بمراحل عبر الزمن إلا أن توثيق وتدوين ذلك التطور منذ العصور الوسطى إلى اليوم كان غائباً عن المشهد العلمي باستثناء بعض المحاولات اليسيرة. انضوت تلك المحاولات في ثنيات المعاجم وأعمال التصحيح اللغوي وأعمال التفصيح اللغوي التي اضطلع بها بعض المتخصصين في العصر الحديث مثل التركستاني، وقد قدَّمَ فيها الكثير من التحقيقات التي لم يُسبق إليها.

والتساؤل الذي يطرح نفسه في حالة العربية يكمن في المسار الذي سَلَكَتْه في تطورها، فهل يمكن القول إن الكلمات العامية اليوم التي تُدرس في مشروعات التفصيح سلكت نهج التبسيط أم التعقيد؟ وهذا ما سأتناوله في المبحث التالي.

(1) Owens Jonathan .(2006), A Linguistic History of Arabic. Oxford .Oxford University Press (16).

٣. مسارات تطور العربية:

كما هو معلوم أن التطور اللغوي في الدرس العربي التراثي اندرج دائما تحت مسمى اللحن، وهو المصطلح الذي أطلقه علماء اللغة على الأخطاء اللغوية التي تندرج تحت مستويات التحليل اللغوي الأربعة: الصوتي والصرفي والتركيبي (النحوي) والدلالي.

في هذا السياق ألف محمد عيد الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة كتاباً بعنوان المظاهر الطارئة على الفصحى، نشرته دار عالم الكتب في القاهرة سنة ١٩٨٠. وحينما نتأمل هذا العمل نجد المؤلف قد افتتحه بالحديث عن معنى اللحن الذي عرَّفه في النهاية بأنه خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام أو تركيبه أو إعرابه نتيجة لاستعمال العامة(١).

ويظهر من تعريفه المتقدم أنه يُدخِل كل التطورات اللغوية على الفصحى تحت مظلة اللحن باستثناء التغيير في الأصوات. وقد كان تغيير الأصوات شائعا في أوساط العجم الناطقين بالعربية ووردت له شواهد في الأعمال الأدبية التي رصدت شيئاً من الواقع اللغوي كما جاء عند الجاحظ في القصة المذكورة في المقدمة(٢). ويَظهر على العمل الذي قدمه عيد أنه يركز على التعامل مع المظاهر الطارئة على الفصحى في العصور الوسطى وليس في العصر الحاضر. ورغم أن المؤلف حدد بعض المعايير اللغوية التي تناولها إلا أنها تظل عامة مثل اللحن، في مقابل معايير أخرى تعود إلى عوامل فولغوية وتحتها معيار التوليد، التعريب، التصحيف والمصطلح العلمي. وحينما ننظر إلى معيار اللحن في الكتاب نجد أن تحته الكثير من الأمثلة التي تعود إلى القرون الباكرة في الإسلام، وهذه الأمثلة تنقسم إلى قسمين: نماذج من الخطأ في المعاني ونماذج من الخطأ في التركيب، وهما معياران عامان خاصة الأخير. وربما أن مثل هذه المعايير يمكن للباحثين أن يصنفوا الأمثلة تحتها؛ للخروج بفكرة تفصيلية حول مسار التطور اللغوي. في المقابل، حينما ننظر في أعمال المستشرقين نجد أنهم قد وضعوا عدة معايير واضحة. وتجدر الإشارة إلى أن حديث المستشرقين عن التطورات الطارئة على الفصحى مرتبطٌ بتوصيف العاميات المعاصرة وليس بالتطور اللغوي في العصور الوسطى كما فعل محمد عيد. فقد أحصى كيس فيرسيخ أربعاً وثلاثين خصيصةً لغوية تشترك فيها اللهجات العربية المعاصرة وتفترق فيها عن العربية الكلاسيكية بنموذجيها الشعري والقرآني(٣). والكثير من هذه الخصائص وردت في أعمال المستعربين الذين سبقوه مثل فيرغستون(٤).

(١) عيد، محمد (١٩٨٠)، المظاهر الطارئة على الفصحى: اللحن، التصحيف، التوليد، التعريب، المصطلح العلمي، القاهرة، عالم الكتب: (١٢).

(٢) الجاحظ، أبو عثمان (١٤٢٣)، البيان والتبيين، بيروت، دار ومكتبة الهلال (١:٨٠).

(٣) Verstegh, Kees. 1984. Pidginization and Creolization: the Case of Arabic. Amsterdam: Benjamins: 19-20

(٤) Ferguson, Charles. 1959a. "Diglossia". Word 1959: 27-58

ومن أبرز هذه الخصائص:

١. غياب المثنى في الأفعال والأسماء والضمائر المنفصلة التي تُعبِّر عنه.
٢. غياب الإعراب.
٣. استبدال ياء النسب باللاحقة (يّه) التي هي في الأساس للتصغير.
٤. غياب صوت الضاد.
٥. استبدال الأسماء الموصولة كلها بكلمة (اللّي).
٦. اختفاء عدد من الأوزان الصرفية في الأسماء ومنها فُعْلَى للمؤنث.
٧. اختفاء عدد من الأوزان الصرفية للأفعال ومنها فَعُلَ وفَعِلَ.
٨. اختلاف الأعداد ومن ذلك غياب التاء المربوطة من الأعداد بين ١٣-١٩.
٩. عدم فك التضعيف في الأفعال عند إسنادها إلى الضمير وترتَّبَ على ذلك اختلافٌ كبير في الفعل (ردّيت بدل رددتُ).
١٠. غياب بنية الفعل المبني للمجهول واستعمال صيغة انفعل بدله (انسرق بدل سُرِق).
١١. غياب شبه كامل لضمير الغائب (ـه) اللاحق للأسماء والأفعال.
١٢. غياب التمييز بين المذكر والمؤنث في الضمائر المنفصلة والأفعال بسبب عدم استخدام ضمائر الجمع المؤنثة، والاكتفاء بجمع المذكر.
١٣. التعبير عن الملكية بألفاظ منفصلة بدل الضمائر نحو (الكتاب بتاعه [مصرية]، الكتاب حقه [حجازية]، الكتاب ماله [خليجية]، الكتاب دياله [مغربية] بدل كتابه).
١٤. التزام جُمَل SVO (فاعل، فعل، مفعول: أحمد كتب الدرس) بدل VSO (فعل، فاعل، مفعول: كتب أحمد الدرس).

وعند تأمل هذه الخصائص نجد أن عدداً منها يصبُّ في صالح فكرة التبسيط فهناك الكثير مما فقدته العاميات مقارنةً بالفصحى وفي مقدمة ذلك التخلص من النظام الإعرابي القائم على حركات الآخر بالكلية. والتخفُّفُ من المثنى وبعض الأوزان الصرفية وعدم فك التضعيف في الأفعال وغياب ضمير الغائب اللاحق للأسماء والأفعال، وعدم التمييز بين المذكر والمؤنث في مواضع عدة. إلا أن هذه الخصائص لا تساعد الباحث على التعميم للقول بأن اللهجات العربية تتجه نحو التبسيط. وممن قال بذلك فيرغسون في مقالته الكلاسيكية حول اللهجية العربية حيث عُدَّت مقالته الأصل في هذا القول الذاهب إلى أن اللهجات أبسط من الفصحى[1]. ولكن جوناثان أونز لا يتفق مع هذا القول ويرد عليه بقوله: إن اللهجات يبدو عليها التعقيد أكثر من الفصحى في بعض النماذج ومن ذلك التفخيم الطارئ على بعض الحروف العربية الذي لا نجده في الفصحى، مثل

(1) Ferguson .Charles (1950), Diglossia". Word 15: 325-40 (333).

تفخيم اللام إذا سبقها حرف مفخم في كلمة (قلب)، وهذا موجود في اللهجة النجدية التي تُفخم فيها اللام في مثل كلمة (خالي).

وفي مثال صرفٍ آخر فإن الفصحى لديها ضميرٌ واحد فقط للمتكلم بينما في اللهجة اليمنية في تهامة الساحل نجد فيها شكلين لهذا الضمير: أنا للمذكر وآني للمؤنث. وفي العربية الفصحى هناك سابقةٌ واحدةٌ للدلالة على الاستقبال وهي السين (سيكتُب) بينما في اللهجة القاهرية هناك سابقتان للدلالة على الاستقبال: الباء، والهاء في قولهم (بِيكتِب) و (هَيكتِب)[١].

وهنا يظهر أن تعميم التبسيط لا يصلح في حالة العربية؛ لأننا اليوم نجد في اللهجات المعاصرة الصورَ الثلاثة للتطور اللغوي فهناك من اللغة ما اتجه نحو التبسيط، وهناك ما اتجه نحو التعقيد، وهناك ما ظلَّ على حاله من الكلمات التي حافظت على شكلها الفصيح، وذُكرت عدة نماذج من ذلك مثل كلمة: إذاً التي حافظت حتى على الإعراب، وكلمة رجلِن (في النجدية) وغيرهما كثير. وبما أن هذا النقاش في أصله نشب في الدراسات العربية في الغرب كخلاف ممتد عبر العصور (منذ الثمانينات الميلادية) بين كل من فيرستيغ وأونز فإنني سأتناول موقفها من تأصيل اللهجات وأعقب ذلك بالحديث عن موقف التركستاني ونظرته الخاصة.

٤. التأصيل بين أونز وفيرستيغ:

لا شك أن أونز وفيرستيغ يؤمنان بما يمليه عليهما تخصصهما وهو اللسانيات الذي نادى فيه شيخه وأول من افتتَّه دوسوسير – يمكن تشبيه دوسوسير في اللسانيات بالخليل ابن أحمد في علوم العربية، فكلاهما لم يترك أعمالاً منقَّحة، ولكن تلاميذهما المخلصين نشروا أعمالهما وأفكارهما التي غيرت مسار الدرس اللغوي – بأن موضوع دراسة اللغة لابد أن يشمل جميع أشكال الكلام البشري وكل ما يمكن أن يندرج تحت الظاهرة اللغوية بعيداً عن المواقف الصفائية التي تعود بالدرس اللغوي إلى المرحلة التوفيقية. ومما يؤكد موقفيهما اهتمامهما الكبير باللغات المُبسَّطة واللغة الكريولية. ومن ناحية الإجراءات التأصيلية للكلمات فلا شك أنهما يرتكزان على معطيات الدرس اللغوي التاريخي الذي يُولِي الأهميةَ الكبرى في تتبع التطور اللغوي للجوانب الصوتية، وذلك على مستوى الكلمة المفردة.

فعلى سبيل المثال يشير فيرستيغ إلى أن التحول نحو اللهجات العربية من اللغة المعيارية صاحبَهُ الكثير من التحول الصوتي وكلٌ من تلك اللهجات تحدُثُ فيها تحولاتٌ مختلفةٌ تخصُّها. وفي الغالب فإن التحولات الصوتية تكون نتيجة التأثر باللغات الأجنبية التي اتصلت بالعربية في تلك المنطقة. فعلى سبيل المثال فإن اللهجات المغاربية في كلٍ من تونس والمغرب والجزائر يظهر على ألفاظها التأثر بأصوات اللغة الأمازيغية، ومن أهم تلك الخصائص التخلص من الصوائت القصيرة في كثيرٍ

(١) Owens Jonathan (2006), A Linguistic History of Arabic. Oxford ,Oxford University Press:. (25-2 6)

من المواضع وهذه من خصائص اللغة الأمازيغية. وفي معظم الحالات فإن الكلمات المقترضة تُخضَعُ لأصوات العربية وليس ذلك في جميع الحالات. ومن الملاحظ أن كثيراً من الكلمات التي تدخل إلى العاميات العربية من اللغات الأخرى يمكن تصنيفها تحت مظلة الأسماء وليس الأفعال وفي هذه الأسماء نجد الظواهر الصرفية الدخيلة على العربية أيضاً إضافةً إلى الظواهر الصوتية(١). فغالب الكلمات التي تتسلل إلى العربية تخلو من الحروف الصوتية التي تتميز بها العربية مثل الحاء والخاء والضاد. ومن أكثر ما تختلف فيه الأوزان في اللهجات المعاصرة هو اختلاف أوزان جموع التكسير في الغالب، وهي ظاهرةٌ بارزة في اللهجات المعاصرة. وفي هذه الحالة وعند التأصيل فإن المادة المعجمية أو الجذر عربي ولكن القالب الصرفي الذي دخل إلى اللهجة ربما كان من اختراع الناطقين باللهجة أو من الأوزان الموجودة اللغات المجاورة التي احتكت بالعربية. مثل كلمة بابور (المُعَدِّية) التي دخلت اللهجة المغربية وجمعها بوابْرْ، وهذا مما لا يتسق مع أوزان جموع العربية(٢).

ولا شك أن هذه القوانين الصوتية الصرفية لا يختلف في تطبيقها أحد من المهتمين بالتأصيل مثل فيرستيغ وأونز وكذلك فعل التركستاني في العمل الذي قدمه تحت عنوان في أصول الكلمات. ولكن يبدو أن الاختلاف بينهم في المواقف القبلية من اللهجات بشكل عام بعيداً عن التفاصيل التي تخص تأصيل كل كلمة على حدة.

وسأبدأ بشرح تأصيل فيرستيغ للهجات العربية فيما يلي: حيث يذهب إلى صعوبة القول: بأن اللهجات العربية المعاصرة تعود إلى العربية الكلاسيكية مباشرة، إذ إنه يبحث عن جذورٍ جديدةٍ لهذه العاميات بحيث يَفترِض وجودَ لغةٍ وسيطةٍ بين العاميات المتأخرة والعربية الكلاسيكية القديمة. ويرى أن هذه اللغة الوسيطة نشأت في أحضان الجيوش العربية التي عَسكَرَت في البلدان المفتوحة، وكان الغرض من هذه اللغة التواصل بين السكان الأصليين في تلك البلدان والعرب الفاتحين. وكأنها تُشبِهُ اللغات المبسطة التي تتكلم بها العمالة الوافدة في كثير من دول العالم. ومن هذه اللغة تطورت العاميات العربية التي نجد فيها الكثير من الفروق الجوهرية مقارنة بالعربية الكلاسيكية(٣).

أما فيما يتعلق بالموقف الآخر ففي سنة ٢٠٠٦ طَبَعَتْ جامعة أوكسفورد كتاباً بعنوان A Linguistic History of Arabic (تاريخٌ لسانيٌ للعربية) للمستعرب الأمريكي الألماني جوناثان أونز وهو أستاذ الدراسات العربية بجامعة بايرويت في ألمانيا. يقدم أونز في هذا الكتاب طرحاً جديداً للدراسة اللسانية التاريخية للعربية فهو يعكس مسار التأصيل، وبدلاً من أن ينطلق من المستويات اللغوية القديمة الموسومة بالفصاحة ينطلق أونز من اللهجات العربية المعاصرة ليكتشف

(1) Versteegh 2010, 645.

(٢) السابق.

(٣) Verstegh. Kees (1984), Pidginization and Creolization: the Case of Arabic. Amsterdam: Benjamins. (22).

الكثير من أسرار المستويات القديمة أو حياة الناطقين بها. ومن هنا فإن أونز لا يُجادل في مسألة أصالة اللهجات العربية المعاصرة من جهة كونها وريثاً مباشراً للعربية في الزمن الذي وسمه اللغويون بالفصاحة، وقد خرج بنتيجتين جديدتين تكمن في التالي: أولاً أنه تمكَّن من تطبيق النهج المقارِن منطلقاً مما يجده في اللهجات الحديثة وبهذا فإنه يأخذ العربية إلى الجانب المقارِن التطبيقي الذي عَمِل عليه كثيرٌ من اللسانيين في لغات عالمية عدة. وما ذلك إلا لأن الغالب في الدرس اللغوي العربي أن يكون المنطلَقُ من القديم (اللغة المعيارية) ويتم البحث في الجديد (اللهجات) عما يشبهه. ثانياً، إن الاستناد على ما نجده في اللهجات العربية الحديثة لوصف أشكالٍ لغويةٍ قديمة فَتَح المجال أمام عددٍ من الباحثين لكي يَسلُكوا هذا النهج ويطبِّقوه في مناطقَ بحثيةٍ متعددةٍ في اللغة العربية مثل التطور الذي يطال الأصوات والزمن في اللغة(١).

يستهلُّ أونز الحديث عن هذا النهج الذي يسلكه بأننا بادئ ذي بدئ نواجه وِحدتين لغويتين أساسيتين: وهما اللغة الأولية وهي الأصل واللغات التي تفرعت عنها. وهذه اللغات الفرعية تربطها بالأصل روابط قوية وهي مجموعة من المواد اللغوية (الجذور) غالباً والقوانين أحياناً. ولكي نقوم بالدراسة التاريخية المتكاملة لابد من الوقوف على الشكل الأخير الذي وصلت له اللغة، وبعد ذلك نعود للقواعد الأصل وننظر كيف كان مسار التطور وهل هذا التطور داخلٌ تحت قواعد اللغة الأولية وموادها أم أن هناك عناصرَ خارجية دخلت وأسهمت في هذا التطور، سواءٌ كانت تلك العناصر مواد لغوية أم قوانين. ويبدأ المَسيرة البحثية من اللهجات مقترحاً أن هذا النهج لم يُطبق من قبلِه لثلاثة أسباب تعود كلها إلى منزلة اللهجات من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية. وهذه الأسباب كالتالي: أولاً، طبيعةُ العلاقة المعقَّدة بين الفصحى والعامية المعاصرة التي لا تحظى بالشرعية على المستوى الرسمي في العالم العربي.

ثانياً، قضية الملاءمة؛ لأن العربية الكلاسيكية حيثما تكون في مقابلة اللهجات غالباً ما تُشكِّل نقطة البداية التي تنطلق منها الدراسة، وحتى أولئك الذين يحاولون دراسة الفصحى في مقابل العاميات غالباً ما تحظى الفصحى بنصيب الأسد في دراساتهم، ويضرب أونز المثل على ذلك بيوهان فك في كتابه العربية حيث استهل الكتاب بمحاولة جادةٍ لدمج العاميات في الدراسة لكنه سرعان ما ينسى توظيف العاميات وينشغل في جل الكتاب بالفصحى. وهذا العامل الثاني يمكن فهمه من حيث النِّتاج العلمي المتراكم عبر الزمن الذي أنتج نموذجاً منضبطاً للدرس اللغوي الكلاسيكي بخلاف اللهجات المعاصرة التي تعاني من إشكالية التدوين وعدم انضباط التقعيد.

أما السبب الثالث فيعود إلى طبيعة الدرس اللغوي الزمني (الدايكروني) المقارن الذي يستهدف دراسة أشكال لغوية متباعدةً زمنياً، الأمر الذي قد يبدو معه الدرس اللغوي العربي الكلاسيكي

(١) Al-wer and Horesh (2019), The Routledge Handbook of Arabic Sociolinguistics. Routledge: London. (6).

قريبَ العهد من الناحية الزمنية خاصة لو قارنَّاه باللغة الأكدية. كما أن العربية التي غالباً ما يستهدفُها البحث هي عربية بواكير عصر الإسلام التي بدأ تدوينها في القرن الثاني هجري/السابع ميلادي، وهذه مصادر تُعد قريبة العهد باللهجات المعاصرة حينما نستحضر تاريخ الساميات كالأكدية مثلاً التي تعود إلى ٢٥٠٠ ق.م[١].

وفي ثنيات هذا النهج فإن أونز يؤكد على ضرورة توظيف العلاقة القوية بين تاريخ اللغات والشعوب الناطقة بها. والنهج المقارن يمكن استعماله كأداة نتعرف من خلالها على هجرات الشعوب الناطقة باللغات المدروسة. وهذا ما حدث في الستينات والسبعينات حيث نتجت نقاشاتٌ بناءةٌ من محاولة فهم العلاقة بين اللغة والهجرات المعروفة في تاريخ شعب البانتو في إفريقيا. وعكس هذا حدث في تاريخ اللغة العربية للأسف إذ إن السجلات اللغوية الضخمة التي تتمتع بها العربية لم تدفع إلى البحث عن فهمٍ أعمق للهجرات التاريخية للناطقين بالعربية. إذ لم يحاول أحدٌ إعادة الكلمات المنتشرة في أرجاء العالم الناطق بالعربية اليوم إلى أقاليمها الأصلية داخل جزيرة العرب قبل خروجهم في الفتوحات الإسلامية[٢].

وإذا نظرنا إلى النهج المعكوس الذي يسلكه أونز في التأصيل فسنجد أنه يقول فيه: إن الأشكال اللغوية الموثّقة في زمنٍ متأخر (مثل اللهجات المعاصرة) هي التي تساعدنا على بناء صورة الشكل الأولي (القديم) للغة الذي لم نكن شهوداً عليه.

وفي النهج المقارن الذي يتبعه أونز نجد أنه يوظف المستوى الصوتي في الكلمات، وفي الجمل يوظف المستوى الصرفي والنحوي ثم يقارن بين اللهجات المتباعدة جغرافياً. وبعد هذه المقارنة يَظهر له أن اللهجات المتقاربة جغرافياً متباينةٌ، بينما اللهجات المتباعدة جغرافياً تُبدي تشابها أكثر في بعض الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية. وبعد هذه المقارنة التزامنية (السينكرونية التي تقارن بين لهجات متعاصرة) يبدأ عمل التأصيل اللغوي عند أونز حيث يعود للماضي ويبحث فيه عما يطابق ما وجده في اللهجات المعاصرة. ثم يخلص إلى النتائج وفيها يقول مثلاً بأن لهجة جنوب السودان تُبدي تشابهاً مع عربية أوزبكستان وبسبب كثرة التشابهات بين اللهجتين فإنه يستبعد أن يكون هذا التشابه من قبيل الصدفة؛ لذا يُعيدُه إلى الهجرات. فمثلاً يقول إن هناك مجموعةً لغويةً واحدةً من إقليمٍ معينٍ في جزيرة العرب انقسمت إلى قسمين أحدهما استوطن أوزبكستان، والآخر جنوب السودان، وهكذا يُعِيد أونز الكلمات والظواهر اللغوية الموجودة خارج الجزيرة العربية إلى أقاليم جزيرة العرب التي اشتهر كل إقليم منها بقبيلةٍ ذات لهجةٍ سافرت ظواهرُها مع المهاجرين من ذاك الإقليم.

(١) Owens Jonathan (2006), A Linguistic History of Arabic. Oxford University Press: Oxford. (8).

(٢) المصدر السابق (١٤-١٥).

٥. موقف التركستاني من اللهجات وتأصيلها:

قبل الوقوف على موقف التركستاني من العاميات لابد من الوقوف على إشكالية الموقف من اللهجات العربية الحديثة وكيف أن هناك آراءً متعددة حول تلك اللهجات بين الشطط في الإقصاء والتوسط وانتهاءً بالشرعنة التي تَولَّد عنها دعوات التلهيج. والحقيقة فإن الدعوات التي تؤيد بشدة أو تعارض بشدة تشكلان موقفين متلازمين يقوم أحدهما على الآخر. ويمكن شرح ذلك فيما سيأتي: بعد أن رزح العالم العربي تحت وطأة عصور ظلامية طويلة يتعارف المختصون في اللغة والأدب على تسميتها بعصور الانحطاط بدأ عصر التنوير أو النهضة في القارة الأوروبية تحديداً، ثم رزحت عدد من الدول العربية تحت وطأة الاستعمار الغربي وكان لذلك الاستعمار آثارٌ مادية ومعنوية خاصة في جانب العقائد والثقافة واللغة. وهذا ما دفع بعض المهتمين باللغة والأدب إلى القول بأن الاستعمار ارتبط به وبأنشطته وتحركاته عددٌ من المستشرقين حتى غدا في عرفهم أن الاستشراق شريك الاستعمار والممهد له. وقد تشكَّل هذا الموقف في أعمال بعض أعلام اللغة والأدب في العالم العربي كما عند الأديب السوري محمد كرد علي الذي كان يحكي عن أن العربية تضررت كثيراً من حملات التتريك التي فُرضت على العرب. وكانت تلك الحملات كما يقول: هي المحفز له إلى القراءة والكتابة في سن مبكرة حيث انكب على قراءة الكتب العربية ودراستها في سن مبكرة رداً على التتريك وسلسلة الإجراءات الجائرة التي طالت مجموعةً كبيرةً من رجال الفكر والأدب في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث اقتيد بعضهم إلى المشانق في دمشق وبيروت، بالإضافة إلى قوافل أخرى سابقة تعرضت للاعتقال والتعذيب والإغراق في البسفور[١].

والحقيقة بأن هذا الحال هو الذي شكَّل الموقف الواضح عند محمد كرد على من اللهجات العامية ودراستها. ويظهر ذلك في كتابه في الأدب والفن واللغة، وكذلك في المواقف التي تبناها في أروقة مجمع اللغة العربية بدمشق. وقد تعجب بعض المستشرقين المعاصرين من الموقف الذي اتخذه محمد كرد علي من دراسة اللهجات العربية حيث وصل إلى تحريم دراسة هذه اللهجات.

والذي يبدو أن المستشرقين المعاصرين الذين يستغربون هذا الموقف من محمد كرد علي لم ينظروا إلى واقع المرحلة الزمنية التي عاش فيها ذاك الأديب. فقد توالى على زمانه التتريك ثم تلاه الاستعمار الفرنسي الذي حل ببلاد الشام، وكل هذا مما لا شك فيه أثر على موقف محمد كرد علي؛ لأنه رأى بعينيه كيف أن الاستعمار غالباً ما يسعى إلى إقصاء العربية الفصحى وتضخيم اللهجات المحلية وإعطائها الأولوية فاتخذ ذلك الموقف[٢]. وهذا سلاحٌ ثقافي رَكَن إليه الاستعمار ردحاً من الزمن، ومن هناك ظهرت دعوات التلهيج ومن أشهر من تبناها سلامه موسى والكتابة

(١) علي، محمد، (١٣٧٢)، مجلة المقتبس، دمشق، مجمع اللغة العربية (١: ١٥).

(٢) من حوار دار بيني وبين المستشرق ديونيسيوس آجيوس وكان ممن ينكر على محمد كرد علي تحريم دراسة العامية وقد ذكرتُ له حجةَ محمد كرد علي ومعاناته مع الاستعمار الذي حطم الإنسان والمكان فقال اتفق مع هذا الكلام ومحمد كرد علي اتخذ الموقف الطبيعي.

بالحروف اللاتينية ومن أشهر من تبناها أنيس فريحة. وفي تلك المرحلة ظهرت أعمالٌ عدة دافع أصحابها عن الفصحى في وجه العاميات فكتب أحمد أمين في منتصف القرن العشرين مقالةً بعنوان "أدبُنا لا يمثلنا" في كتابه "فيض الخاطر"، وهناك أعمال أخرى غيره جاءت من بعده. إلا أن هذه الأعمال شكَّلت مرحلةً جديدة دفعت عدداً من المتخصصين إلى البحث عن العلاقة بين العامية والفصحى فكتب أحمد رضا العاملي كتابه الشهير رد العامي إلى الفصيح، وكتب محمد كرد علي كتاب "العامية من الفصحى". وألَّف رضوان الداية "معجم العامي الفصيح من كلام أهل الشام"، وفي ركاب هذه الأعمال ينضوي أحد أهم الأعمال في هذا المجال وهو موسوعة "العاميات الفصاح في لهجاتنا المعاصرة". والموقف الذي يتخذه التركستاني في هذا العمل يصب في صالح الفصحى إذ ينحو في أعماله تجاه التفصيح عن طريق البحث عن أوجه التشابه بين العاميات والفصحى. ويظهر أن هذا الموقف وهو العمل على التفصيح موقف ثابت ينطلق منه الباحث منذ أول مرحلة في هذا العمل. وأقصد بذلك العمل الميداني؛ لأن الباحث في هذا المجال إنما يختار من الكمات ما يوافق هدفه في الدراسة وهو الكلمات التي لها علاقة بالفصحى، أما الكلمات التي لا علاقة لها بالفصحى كالأعجمية التي دخلت العربية فلا يُلتفت لها.

والحقيقة أن التركستاني له موقف واضح من اللهجات وعلاقتها بالفصحى نجده في أحد أعماله الذي يحمل عنوان في العاميات والفصحى المخففة نُشر سنة ١٤٣٢هـ. الموقف الذي يتبناه التركستاني في هذا العمل يرتكز على منطلَقَين: الأول يتعلق بالتقسيم الزمني الخاص بالتطور اللغوي، والآخر يتعلق بأصل اللهجات ومدى ارتباطها بالفصحى على أن الفصحى هي الأصل واللهجات متفرعةٌ عنها. لأن بعض الباحثين المعاصرين لا يقبلون ذلك إذ يرون بأن اللهجات المعاصرة منبترةٌ عن الفصحى والعلاقة بينهما ضعيفة جداً[١]. ونحن اليوم نجد أن هذا الموقف قد تبلور في الجامعات الغربية ونتج عنه رؤيةٌ جديدة للطلاب العرب حيث يتم قبولهم في بعض الجامعات الغربية على أنهم قد حققوا شرط الثنائية اللغوية؛ لأنهم ناطقون بالفصحى وبإحدى العاميات العربية التي تُعد لغة مستقلة بذاتها. وهذا الموقف وإن كان في صالح الطلاب العرب الدوليين في بعض الجامعات إلا أنه ينطوي على مغالطةٍ كبرى مفادُها أن العامياتِ لا علاقة لها بالفصحى تماماً ولهذا الرأي معارضون كثر في الغرب في مقدمتهم جوناثان أونز[٢].

ولعلي في هذه العجالة أعرِّجُ على المنطلق الأول عند التركستاني ثم انتقل إلى الثاني. والأول يكمن في التقسيم الزمني للتطور اللغوي الذي طال العربية كما يراه، وهو عبارة عن تطور داخل عصور الفصاحة، وتطور خارج عصور الفصاحة. فالتطور داخل زمن الفصاحة أنتج اللهجات العربية القديمة التي تُسمى بالفصيحات، ويُسمِّي التركستاني هذه التغييرات التي نتجت عنها

(١) Versteegh. Kees (1984), Pidginization and Creolization: the Case of Arabic. Amsterdam: Benjamins. (22).

(٢) Owens Jonathan (2006), A Linguistic History of Arabic. Oxford University Press: Oxford. (14–15).

اللهجات العربية القديمة بالتطور الذاتي. وقد أدى هذا التطور إلى سَعَةٍ في معجم العربية بإضافة مزيدٍ من المواد اللغوية. أما التغييرات التي تندرج تحت هذه المنطلق فيلخصُها التركستاني في ظاهرة المرونة التي يقسمها إلى قسمين: المرونة اللفظية ويندرج تحتها ظواهرُ عدة على سبيل المثال: الإمالة، التسهيل، المعاقبة، الإبدال، القلب، الإعلال، الترادف، والمشترك. والمرونة المعنوية ويندرج تحتها التضمين، التغليب، المجاز، الاستعارة والكناية[١].

أما المرحلة الثانية من التطور الذي طال العربية فهي تلك التي كما يقول التركستاني: فتحت فيها العربية صدرها للغات الأمم الأخرى وأمدَّتها هذه المرحلة بطاقةٍ جديدةٍ دون أن تفقد شخصيتها وخصائصها، ولكنها بدأ التأثر يظهر عليها نتيجة نشأة العاميات من حولها. وتلك نتيجةٌ حتميةٌ لخروج العربية من كونها لغةَ عرق أو جنس العرب إلى كونها لغة كل من يدين بالإسلام ومن كونها لغةَ سليقةٍ إلى كونها لغةَ تَعلُّم[٢]. ولم تَعُد الفصحى بعد هذه العصور إلى كونها لغةَ سليقةٍ حتى يومنا هذا إذ أصبحت اللغات الأم للناطقين بالعربية اليوم هي العاميات على اختلافها، أما الفصحى فهي لغة ثانية يتعلمها العربي في مراحل التعليم الأولى. وبالرغم من أن تعلم الطلاب للفصحى يندرج تحت مظلة عمليات تعلم اللغة الثانية أو الثالثة إلا أن تعلم أبناء العربية للفصحى في المدارس تقع في مرحلةٍ أقل من مرحلة تعلم لغة جديدة بالكامل.

أما المنطلق الثاني فيكمن في حالة انفجار المعلومات وانتشار وسائل التواصل التي أدت إلى الاتصال بين اللهجات العربية بعضها مع بعض من جهة واتصال تلك اللهجات بالفصحى من جهة أخرى. فأول ما يؤدي إليه الاتصال بين اللهجات العربية بعضها مع بعض هو التقارب، أو ما يمكن أن نسميه بحالة التبييض التي تتقارب فيها اللهجات. وينتج عن ذلك أن تزداد حالة الأُلفة بين العربي وبين اللهجات الأخرى المغايرة للهجته؛ لكثرة تعرضه لتلك اللهجات في القنوات الفضائية والسينما ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة[٣].

أما الاتصال بين الفصحى واللهجات فيرى التركستاني فيه فرصةً للوقوف على أوجه التشابه بينهما الأمر الذي يعمل على ردم الهوة بين اللغة المعيارية والتشكُّلات اللهجية التي تبلورت وشكلت حالةً لهجيةً معقدةً لا أعتقد أنها موجودة في اللغات العالمية الأخرى. هذه الحالة اللهجية تشكلت خلال مدةٍ زمنية تفوق الألفية بدأت في العصور الكلاسيكية مروراً بالعصور الوسطى وبواكير العصر الحديث الذي يُسمَّى بعصر النهضة وانتهاءً بعصر انفجار المعلومات وتحول العالم إلى قرية صغيرة اليوم. والتفصيح عند التركستاني يكمن في التقريب بين المستويين المتباينين، وفي مستهل حديثه عن التفصيح يستحضر بدايات مثل هذه الأعمال الهادفة إلى ردم الهوة بين المستوى المعياري والمستويات الدارجة، وفي مقدمة من عمل على ذلك رضي الدين الحنبلي في كتابه بحر العوام. وفي

(١) التركستاني، محمد يعقوب (١٤٣٢)، في العاميات والفصحى المخففة، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية (١٤-١٥).
(٢) التركستاني، المصدر السابق (١٦).
(٣) التركستاني، المصدر السابق، (٣٢-٣٣).

ثنيات استحضاره لهذه النماذج المشرقة من التراث العربي يوضح التركستاني بأن مثل هذه المشروعات ليست وليدة اليوم، وهذا ما سأناقشه في المبحث التالي.

٦. التفصيح

وعند تأمل هذا النوع من التأليف المنضوي تحت فرع اللسانيات الاجتماعية يظهر لنا عمل من هذا النوع الذي يروم التفصيح قدَّمه المستشرق جورج أوغست والين George Wallin. وقد بدأ عمله والفصحى ماثلةٌ أمامه وافتتح العمل بقوله: إن لهجات شبه الجزيرة العربية قد تكون أقرب إلى اللغة العربية أكثر مما نظن، وربما تكون من السلالات المنحدرة مباشرة من تلك اللغة. وقد ألف هذا العمل في ١٨٥٤ حين كان علمُ دراسة اللهجات العربية في بداياته. والنظرة العُجلى إلى كتابه تجعلُنا نعتقد أنه يعمل على تفصيح اللهجة النجدية التي درسها؛ لأنه في أغلب المواضع يضعها بإزاء العربية الكلاسيكية وكأنه يعمل على التفصيح. في حين أن المتخصصين في اللسانيات الاجتماعية لا يتفقون مع هذا الطرح، إذ يرون أنه طرحٌ موجَّهٌ منذ بدايته إذ يبدأ الباحث في التفصيح وهو يحمل هاجس الفصحى الأمر الذي ربما أدى إلى الانحراف في بعض النتائج. وهذا ما يؤدي إلى ما يُسمَّى في علم التأصيل إلى ما يُسمى بـ folk etymology (تأصيل الكلمات الشعبي)، وهو عبارة عن تأصيلٍ دارج بين الناطقين باللغة ولا أساس له من الصحة. وقد وقع فيه كبار علماء اللغة من الرعيل الأول، وأضرب على ذلك المثال بما جاء حول إحدى الكلمات البحرية (إسطرلاب) وهي تلك الأداة التي كان يستعملها البحارة في عملية الاهتداء بالنجوم ويسمونها مقياس النجوم. فقد ذهب كلٌّ من الحمْيَري[١] والصغاني[٢] والفيروزبادي[٣] والزبيدي[٤] إلى أنها مشقة من الفعل أَسْطَرَ (خَطَّ سطراً) وأضيف الفعلُ إلى لاب وهو اسم رجل هندي اخترع الاسطرلاب، والصحيح أن الكلمة يونانية Astrulabos[٥]. مثل هذه الأخطاء في التأصيل التي تعود إلى الحرص على التفصيح هي ما يسميه بعض الباحثين في علم اللغة الاجتماعي بتأثير المستوى الغالب من اللغة على المستوى الأقل منزلة في عيون الناطقين باللغة. وهذا متجسد في رأيهم في الحالة العربية التي تكتنفها الحالة اللهجية المعقدة[٦]. وإضافة إلى ما تقدم يرى المتخصصون في اللسانيات الاجتماعية أن بحوث التفصيح تتطلب تجاهل كل ما لا يمكن ربطه بالفصحى ابتداءً.

(١) الحميري، نشوان (١٩٩٩)، شمس العلوم دواء ما في كلام العرب من الكلوم، تحقيق حسين العمري، ماهر الإرياني، و يوسف عبدالله، الأجزاء ١-١١، (ط١)، بيروت، دار الفكر المعاصر (٦١٣٥:٩).

(٢) السابق.

(٣) الفيروزبادي، مجد الدين (١٩٧٨)، القاموس المحيط، الأجراء ١-٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة. (١:١٢٨).

(٤) الزبيدي، محمد (٢٠١٦)، تاج العروس من جواهر القاموس، ١-٤٠. دار الهداية: القاهرة (٤:٤٢٢).

(٥) Liddle and Scott, Henry and Robert (1996), A Greek-English Lexicon. Bath: Bath Press tenth edition. (263).

(٦) Al-Wer and Horesh (2019), The Routledge Handbook of Arabic Sociolinguistics. Routledge: London. (4).

وعند النظر في أول عمل قدمه التركستاني في عام ١٤١٢ بعنوان في أصول الكلمات يبدو للقارئ من الوهلة الأولى أنها دراسةٌ تأصيليةٌ شاملةٌ لما له أصلٌ عربيٌ وما ليس له أصل عربي. ولكن عندما ننظر في المقدمة نجد أن التركستاني يسير في ركب من سبقه من العلماء الذين لا تنقطع صلة أعمالهم بالفصحى، وقد ضرب التركستاني المثل بالرازي في كتابه الزينة في الكلمات الإسلامية. والموقف الذي يتخذه التركستاني في هذا العمل يمكن أن نقف عليه في قوله في المقدمة:

"وأهدِفُ إلى وصل الفصحى المعاصرة بالعربية الفصحى في شيء مما تجري به استعمالات الناس من الألفاظ"(١).

والكلمات التي اختارها للدراسة شاع استعمالها في الفصحى المخففة وبسبب ما يبدو عليها من الاختلاف عن الفصحى فقد ارتأى أن يتتبع التطور اللغوي الذي طال تلك الكلمات عبر الأزمنة وقد بدأ من مسألة الاشتقاق. ولا شك في أن مثل هذه العمل ينطلق غالباً من المعنى الذي تدور حوله المادة اللغوية أو الجذر اللغوي الذي اشتُقت منه الكلمة المدروسة. ومن خلال الجذر يمكن الوقوف على عدة أمور: الأول أن معنى الجذر يساعد على التفريق بين ما له أصل عربي وذلك عند الوقوف على الرابط المعنوي (السمانتيكي) بمعنى الجذر، وما ليس له أصل عربي وذلك عند غياب ذلك الرابط. ثم إن ما له رابط معنوي إما أن يكون قد ورد عند القدماء وهذا ما نجده في المعاجم العربية الكثيرة، أو مما لم يرد في الأعمال المعجمية، وهو إما فائت قطعي إذا وجدنا أنه قد ورد في بعض النصوص القديمة، أو فائت ظني إذا لم يكن له وجود في النصوص القديمة(٢). ثانياً، عدد الأصول في الجذر أيضاً لها دورٌ في تحديد أصالته فغالب ما كان على ثلاثة أحرف فهو عربيٌ في أصله وما زاد على ذلك فهو مظنَّةَ أن يكون أعجمياً، وفي هذا السياق لا يَخفَى أن بعضَ الأعجمي يبدو وكأنه مشتقٌ من الثلاثي، لكن في هذه الحالة غالباً ما يُحتكَم إلى الرابط المعنوي.

والعمل الآخر الذي قدمه التركستاني في تأصيل الكلمات اللهجية يحمل عنوان العاميات الفصاح في لهجاتنا العربية المعاصرة، وهو عملٌ كبير يتألف من ثلاثة أجزاء طبعه مجمع اللغة العربية بمكة على الشبكة الافتراضية سنة ١٤٤١. وعند النظر في مقدمة العمل نجد أن المؤلف يتحدث عن أنه تتبع المواد اللغوية ذات الأصول العربية وقيدها. وقد جمعها من السماع الحسي في عملٍ ميدانيٍ يبدو أنه امتد لسنوات عدة. وهذا التدوين لا يقوم على فكرة طرح الأسئلة والمقابلات في جمع البيانات، بل إن المؤلف سجَّل هذه المعلومات من واقع الناس الحسي المباشر وهم يتبادلون منافع حياتهم اليومية في بيئات عربية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها(٣).

(١) التركستاني، محمد يعقوب (١٤٣٢)، في العاميات والفصحى المخففة، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية (٣٣).
(٢) الصاعدي، عبد الرزاق (٢٠١٦)، فوائت المعاجم (الفوائت القطعية والفوائت الظنية). جدة، الدار العصرية (٢٣).
(٣) التركستاني ١٤٤١، ١: ١٣-١٤.

ومن الجميل في هذا العمل أن المؤلف في بداية مناقشة كل كلمة يذكر مصدرها أو المنطقة التي سمعها فيها أو فئة الناطقين بها. وفي ثنيات النقاش يبدأ التركستاني من المادة اللغوية وما يُحيط بأصلها القديم وفرعها المعاصر والمعنى المشترك بين المادة وهذه الفروع قديمها وجديدها. إضافة إلى المعاني المكتسَبة من المبنى والمعاني المقتبسة من لغات العرب وأقوال اللغويين في الكلمة. ومن هنا تنتج المقارنة بين وجه الاستعمال المعاصر والدلالة القديمة للكلمة، وما الذي جاء على سَنَن العربية، وما الخارج عن سنن العربية ثمَّ يُتبِعُ ذلك بالشواهد ما أمكن.

ومن خلال هذين العملين يظهر جلياً أن التركستاني لا يخرج عن مسار التفصيح ويبدأ هذا المسار من مرحلة الجمع حيث يقصر عمله الميداني على ما له علاقة بالعربية وخاصةً من جهة المادة اللغوية أو الجذر اللغوي. وأما ما تظهر علاقته باللغات الأخرى فلا يَدخل في مرحلة الجمع. وتجدر الإشارة إلى أن اللهجات العربية فيها الكثير مما دخل من اللغات الأجنبية وبشكل خاص اللهجة الحجازية. إذ يرى كثير من الباحثين مثل Bruce Ingam بروس إنقام[1] في بحث ألفه بعنوان Some Characteristics of Meccan Speech (بعض خصائص كلام المكيين) بأن الحجازية الحضرية تبدو عليها الكثير من مظاهر اللغات الأعجمية كما أنها تشتمل على الكثير من الكلمات الأعجمية. ويعزو ذلك إلى حقيقة المجتمع المكي الكوزموبولوتي (متعدد الأعراق). وهناك خصيصة أخرى أشار إليها إنقام في كلام المكيين وهي أنه خليط من اللهجات العربية إذ مكة يفد إليها واستقر بها عدد كبير من الناطقين باللهجات العربية المجاورة كالعراقية والشامية، والمصرية والسودانية واليمنية[2]. والعمل الذي قام به التركستاني يحفل بمثل هذه الأمثلة من اللهجة الحجازية التي تعود إلى اللهجات العربية المجاورة، وربما لو أن باحثاً قام بوضع خريطة لهجية للشواهد اللهجية التي قدمها التركستاني قد يبدو أن العدد يميل ناحية أمثلة اللهجة الحجازية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن تصنيف أمثلة اللهجات في عمل التركستاني يمكن أن يكون عملاً في غاية الصعوبة؛ لأن هناك عدداً من الكلمات المشتملة على ظواهر صوتية لا تظهر في الكتابة المستعملة في عمل التركستاني، على سبيل المثال لا الحصر غياب الأصوات البين أسنانية Interdental مثل ث، ذ، ظ.

(١) كان إنقام أحد أعضاء لجنة مناقشة الدكتوراة الخاصة بي في جامعة إكستر سنة ٢٠١٥ وكان يؤكد على أهمية دراسة الأعجمي في اللهجات أثناء نقاشي معه.

(٢) Ingam, Bruce (1971), Some Characteristics of Meccan Speech. Bulletin of SOAS (2) 273–297. (274).

الخاتمة:

قدمتُ هذه الورقة استعراضاً عاماً لمواقف متنوعة تجاه اللهجات العربية المعاصرة وهذه المواقف التي وقفتُ عليها بشيء من التحليل والدراسة يمكن تحديدُها من جهتين: الأولى من جهة المختصين المتبنِّين لهذه المواقف ويمكن الإشارة إلى ثلاثة من أساطين العربية وعلمائها المعاصرين وهم: محمد بن يعقوب التركستاني و كيس فيرستيغ وجوناثان أونز. ويمكن لنا على الجهة الأخرى أن نحدد الموقف بأنه متعلق بجانبين لغويين: أحدهما يكمن في أصل اللهجات العربية وهل العربية المعارية سَلَفٌ لها بحيث تكون هي الأصل واللهجات فرع مباشر عنها أم لا بحيث تكون هناك لغةٌ وسيطةٌ بينهما؟ والجانب الآخر يكمن في كيفية تناول المخرَجَات اللغوية للهجات العربية. وهل الاقتصار على التفصيح أفضل أم الدراسة لكل هذا الجسم اللهجي في جوانبه التي لها أصل في الفصحى وما له أصل في اللغات الأجنبية الأخرى هو الأفضل؟

وعند تأمل مواقف هؤلاء العلماء الثلاثة نجد أنهم يلتقون أحياناً ويفترقون أحياناً أخرى. ويمكن شرح ذلك فيما يلي: وأبدأ بما يتعلق بأصل اللهجات العربية المعاصرة. فالتركستاني لا يُبدي موقفاً صفائياً متشدداً تجاه هذه الأشكال اللغوية اللامعيارية ويتخذ موقفاً واضحاً مفادُه أن هذه اللهجات تعود في أصلها إلى العربية المعيارية المتمثلة في اللهجات العربية القديمة المنضوية تحت لواء الفصاحة. ويتفق جوناثان أونز مع هذا الموقف لكن كيس فيرستيغ لا يتفق معهما في هذا إذ يرى أن اللهجات العربية المعاصرة وريثةُ شكلٍ لغوي وسيط نشأ بعد اتصال العرب بالعجم وهو أشبه ما يكون برطانات الوافدين المعروفة في كثير من بلدان العالم. وبهذا الموقف فإن فيرستيغ يُركِّز على جوانب الاختلاف بين العربية المعيايرية واللهجات المعاصرة، ولا يلتفت إلى الظواهر اللغوية الكثيرة التي تحفل بها اللهجات المعاصرة ولا شك أن تلك الظواهر تعود إلى اللهجات العربية القديمة الموسومة بالفصاحة. وهذا التشابه بين اللهجات القديمة والمعاصرة هو ما يدفع التركستاني وأونز إلى القول: بأن اللهجات المعاصرة هي الوريث المباشر للفصحى القديمة.

أما فيما يتعلق بدراسة المخرجات اللغوية للهجات المعاصرة فإننا نجد التركستاني ينحاز نحو التفصيح أي أن الدراسة عنده لابد أن تنتقي ماله أصل عربي، والهدف العام عنده هو خدمة الفصحى وذلك بالتقريب بينها وبين العامية. وبالرغم من أن التركستاني يبدي حماساً واضحاً للتفصيح إلا أنه لا يُعادي أو يُقلل من قيمة الدراسة التأصيلية البعيدة عن التفصيح التي تتعقب الكلمات في اللغات الأخرى. وممن اهتم بذلك من معاصري التركستاني الدكتور ف عبدالرحيم في أكثر من عمل قدمه حول تأصيل كلمات أعجمية في اللهجات العربية[1]. وفي مقابل موقف التركستاني نجد أن كلاً من أونز و فيرستيغ يتفقان على أن الدراسة التأصيلية لابد من أن تتحرر

(١) ف. عبدالرحيم، القول الأصيل، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، فانيا مبادي عبدالرحيم، الدخيل في اللغة العربية الحديثة ولهجاتها، دمشق، دار القلم.

من قيد التفصيح. ولا شك أن الاختلاف بين موقفيهما في مقابل موقف التركستاني مفهومٌ من جهتين: إحداهما، اللسانيات الاجتماعية الحديثة التي ترى أن الدراسة لابد أن تتناول كل أشكال النتاج اللغوي دون تفضيل نتاج على آخر وهذا من بدهيات اللسانيات. والثانية جهة خدمة العربية الفصحى وكيف أن ذلك خدمة للدين وهو أمر يعلنه كثير من علماء اللغة المسلمين بل إنهم يتعبدون الله بذلك، والتركستاني لا يشذ عنهم فهو يسير في ركاب كلٍ من الأزهري والجوهري. في المقابل فإن أونز وفيرستيغ لا يتبنَّيَان هذا الموقف النابع من إيمان المسلم بأن العربية لغة كتاب الله الكريم وخدمتها خدمة للرسالة المحمدية العظيمة. حتى أُونز فإنه وإن ركَّز في بعض أعماله على ما له علاقة بالفصحى وكأنه يعمل على التفصيح إلا أنه يتخذ ذلك نهجاً علمياً فقط، ولا يفعله تماشياً مع موقف المسلم الذي يتعبد بذلك كما فعل التركستاني.

المراجع العربية:

- الأزهري، أبو منصور ٢٠٠١. تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- الأفغاني، سعيد ١٩٧٨. من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح.
- التركستاني، محمد يعقوب ١٤١٢. في أصول الكلمات. الجامعة الإسلامية: المدينة المنورة.
- التركستاني، محمد يعقوب ١٤٣٢. في العاميات والفصحى المخففة، الجامعة الإسلامية: المدينة المنورة.
- الجاحظ، أبو عثمان ١٤٢٣، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال: بيروت.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد ١٤٠٤. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت.
- الحميري، نشوان ١٩٩٩. شمس العلوم دواء ما في كلام العرب من الكلوم، تحقيق حسين العمري، ماهر الإرياني، و يوسف عبدالله، الأجزاء ١-١١، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر: بيروت.
- دوسوسير، فرديناند ١٩٨٥. علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية: بغداد.
- الزبيدي، محمد (بلا تاريخ). تاج العروس من جواهر القاموس، ١-٤٠. دار الهداية: القاهرة.
- الصاعدي، عبد الرزاق. فوائت المعاجم (الفوائت القطعية والفوائت الظنية). جدة: الدار العصرية، ٢٠١٦.
- الصغاني، الحسن ١٩٧٠/١٩٧٧/١٩٧٩. التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، عبدالعليم الطحاوي، الأجزاء ١-٦، مطبعة دار الكتب: القاهرة.
- عيد، محمد ١٩٨٠. المظاهر الطارئة على الفصحى: اللحن، التصحيف، التوليد، التعريب، المصطلح العلمي، عالم الكتب: القاهرة.
- علي، محمد ١٣٧٢. مجلة المقتبس، مجمع اللغة العربية: دمشق.
- غلفان، مصطفى. "في اللسانيات العامة تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها". (لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة ٢٠١٠).
- عبدالرحيم، ف، القول الأصيل، مكتبة لينة للنشر والتوزيع.
- عبدالرحيم ف، الدخيل في اللغة العربية الحديثة ولهجاتها، دمشق، دار القلم.

- الفيروزبادي، مجد الدين. ١٩٧٨. القاموس المحيط، الأجراء ١-٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة.
- كرامش، كلير ٢٠١٠. اللغة والثقافة. ترجمة أحمد الشيمي، وزارة الفنون والتراث: قطر.
- هدسون ١٩٩٠، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، الطبعة الثانية، عالم الكتب: القاهرة.

المراجع العربية باللغة اللاتينية (الرومنة):

- ālzhry ،bw mnṣwr 2001. thḏyb āllġ ،ةtḥqyq mḥmd ʿwḍ mrʿb ،dār إḥyāʾ āltrāṯ ālʿrby: byrwt.
- ālfġāny ،sʿyd 1978. mn tāryḫ ālnḥw ālʿrby ،mktbة ālflāḥ.
- āltrkstāny ،mḥmd yʿqwb 1412. fy ṣwl ālklmāt. ālǧāmʿ ālإslāmy: ālmdyn ālmnwr.
- āltrkstāny ،mḥmd yʿqwb 1432. fy ālʿāmyāt wālfṣḥى ālmḫff ،ālǧāmʿ ālslāmy: ālmdyn ālmnwr.
- ālǧāḥẓ ،bw ʿṯmān 1423 ،ālbyān wāltbyyn ،dār wmktbة ālhlāl: byrwt.
- ālǧwhry ،smāʿyl bn ḥmād 1404. ālṣḥāḥ ،tāǧ āllġة wṣḥāḥ ālʿrby ،tḥqyq أḥmd ʿbdālġfwr ʿṭār ،dār ālʿlm llmlāyyn: byrwt.
- ālḥmyry ،nšwān 1999. šms ālʿlwm dwāʾ mā fy klām ālʿrb mn ālklwm ،tḥqyq ḥsyn ālʿmry ، māhr ālryāny ،w ywsf ʿbdāllh ،ālǧzāʾ 1-11 ،ālṭbʿ ālأwl ،dār ālfkr ālmʿāṣr: byrwt.
- dwswsyr ،frdynānd 1985. ʿlm āllġ ālʿām ،trǧmة ywyl ywsf ʿzyz ،dār آfāq ʿrby: bġdād.
- ālzbydy ،mḥmd (blā tāryḫ). tāǧ ālʿrws mn ǧwāhr ālqāmws ،1-40. dār ālhdāyة: ālqāhr.
- ālṣāʿdy ،ʿbd ālrzāq. fwāt ālmʿāǧm (ālfwāئt ālqṭʿyة wālfwāt ālẓnyة). ǧd: āldār ālʿṣry ،2016.
- ālṣġāny ،ālḥsn 1970/1977/1979. āltkml wālḏyl wālṣl lktāb tāǧ āllġة wṣḥāḥ ālʿrby ،tḥqyq ، ʿbdālʿlym ālṭḥāwy ،ālأǧzāʾ 1-6 ،mṭbʿة dār ālktb: ālqāhrة.
- ʿyd ،mḥmd 1980. ālmẓāhr ālṭār ālfṣḥ: āllḥn ،āltṣḥyf ،āltwlyd ،āltʿryb ،ālmṣṭlḥ ālʿlmy ، ʿālm ālktb: ālqāhr.
- ʿly ،mḥmd 1372. mǧl ālmqtbs ،mǧmʿ āllġة ālʿrbyة: dmšq.
- ġlfān ،mṣṭf. "fy āllsānyāt ālʿām tāryḫhā ،ṭbyʿthā ،mwḍwʿhā ،mfāhymhā". (lbnān: dār ālktāb ālǧdyd ālmtḥd 2010).
- ālfyrwzbādy ،mǧd āldyn. 1978. ālqāmws ālmḥyṭ ،ālأǧrāʾ 1-4 ،ālhy ālmṣry ālʿām llktāb: ālqāhr.
- krāmš ،klyr 2010. āllġة wālṯqāf. trǧmأ ḥmd ālšymy ،wzār ālfnwn wāltrāṯ: qṭr.
- hdswn 1990 ،ʿlm āllġ ālāǧtmāʿy ،trǧm mḥmwd ʿyād ،ālṭbʿ ālṯāny ،ʿālm ālktb: ālqāhr.

المراجع الأجنبية:

- Al-Wer, Enam and Uri Horesh 2019. The Routledge Handbook of Arabic Sociolinguistics. Routledge: London.
- Giesbrech, Renate. 2008. The Sapir-Worf Hypothesis. Grin Verlag: München.
- Ferguson, Charles. 1959a. "Diglossia". Word 15: 325-40.
- Ingam, Bruce. 1971. Some Characteristics of Meccan Speech. Bulletin of SOAS (2) 273-297.
- Liddell, Henry and Robert Scott. 1996. A Greek-English Lexicon. Bath: Bath Press;
- tenth edition.
- Owens, Jonathan 2006. A Linguistic History of Arabic. Oxford University Press: Oxford.
- Sebba, Mark. 1997. Contact Language: Pidgins and Creoles. Palgrave: New York.
- Verstegh, Kees. 1984. Pidginization and Creolization: the Case of Arabic. Amsterdam: Benjamins.
- Verstegh, Kees. 2010. Handbook of language contact, ed. by Raymond Hickey, 634-651. Wiley-Blackwell: Chichester.